مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 597 - 610

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

الولي الصالح طيفور بن امحمد وذريته في المخيال الشعبي لساكنة سيدي طيفور

The good guardian tifour bin m'hamed and his offspring through the popular imagination of the inhabitants of sidi tifour

طا. با. مخطاري علي [1*]، قنون حياة [2]

[1] جامعة الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، alimokh.insp32@gmail.com

[2] جامعة الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، guenounehayat1@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/07/28 **تاريخ القبول:** 2021/10/10 **تاريخ النشر:** 2021/12/30

ملخص:

نصبو من خلال هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على شخصية الولي الصالح سيدي طيفور بن امحمد صاحب الضريح المعروف بولاية البيض، والتعريف بذريته خاصة من اشتهر منهم بالصلاح والاستقامة، وحفظت لهم الذاكرة الشعبية لساكنة سيدي طيفور بعض الكرامات التي توارثها الأبناء عن الأجداد من خلال الشعر الشعبي الذي يؤرخ لبعض الأحداث التي وقعت لهم ، كما ننقل بعض الإشارات والمقتطفات لأحفاد سيدي طيفور من خلال ما كتبه بعض الرحالة المغاربة ودوّنوه في كتب الرحلات الحجازية التي كانت تمر بأماكن تواجدهم ، على غرار الرحلة العياشية والناصرية. هذا في غياب شبه تام لمصادر مكتوبة عن هذا الرجل الصالح، إلا ما ورد في كتاب النسب الشريف (ذرية النبي صلى الله عليه وسلم في المغرب العربي) وشُرفة الجنوب الغربي لصاحبه خليفة بن عمار.

كلمات مفتاحية: الولي، الكرامات، طيفور، الذاكرة.

Abstract:

We aim through this research paper to highlight the personality of Sīdī tayfūr Ben Muhamed, a pious man and the owner of the shrine known as the state of Al-Bayad. And to highlight, in addition; his posterity especially those who were best known for their righteoussness and who were well momorised among the inhabitants of this protector. This memory were inherited by generations through the popular poetry which tells some of the events that occuered at this periode of time. We , furthermore; transmit some of the signals and selections of Sīdī tayfūr ´s descendants throughout the writings of some Maghreban travelers who have recorded in Higazi trips which exsited at their time such as Al- ʾayašī and Nāsiriya trips. We have noticed , though; the complete absence of written resources about this pious man except for what have been mentionned in (kitāb Ennaseb Ešrīf) « the Noble Genealogy ´s » (Generation of prophet Muhamed) and (Šurfā' El-Ğanūb) (Gentlefolk of th south) of khalifa ben ʾamār.

Keys words: Protector-Charisma- tayfūr- remembrance.

[*] المؤلف المرسل.

مقدمة :

يحتل الأولياء الصالحون مكانة خاصة في المجتمع الجزائري عموما، وفي الجنوب الغربي منه خصوصا، حيث تنتشر القباب،وتشيّد أضرحة الصالحين، وتقام عند كثير منها مواسم "الوعدة والزيارات" بصفة دورية كل سنة، وتحتفظ الذاكرة الشعبية بقصص وحكايات على شكل كرامات تنسب لأولئك الصالحين، ولا تكاد تنعدم منطقة من المناطق أو مدينة من المدن من وجود ضريح لولي صالح يقصده الناس للزيارة ويعظّمون شأنه، ويحفظون مكانته من خلال القصص وبعض الأساطير التي تناقلها الأبناء عن الآباء .

وقد شكل أولئك الصالحون عاملا أساسيا في استقرار الناس خلال الفترة الحديثة، حيث توطّن كل واحد منهم بمنطقة معيّنة، وبدأت ذريّته وحفدته فيما بعد ينحون نحو بناء المساكن والتخلي رويدا رويدا عن حياة التنقل والارتحال، فبُنيت القصور، وتشكّلت بالقرب من أضرحة الأولياء كثير من المدن، لتحمل تلك التجمعات السكانية أسماءهم، وتعرف بهم على غرار بلدية سيدي طيفور بولاية البيّض والتي حملت اسم الجد الأول للطوافير، حيث عاش واستقر بهذه المنطقة، وبعد وفاته دفن بها، ليتوارثها أبناؤه من بعده جيلا بعد جيل، ونحن هنا نحاول أن نعرّف بهذه الشخصية الصالحة، ونرصد بعض الأخبار التي لا يزال يحتفظ بها المخيال الشعبي لساكنة سيدي طيفور عن أجدادهم، وتدوين أهم المحطات البارزة حتى لا تندثر بمرور الزمن، فلا تجد الأجيال القادمة ما تعرف به تاريخ آبائهم وأسلافهم ومآثرهم النبيلة، وقد اعتمدنا بشكل كبير على الرواية الشعبية، بالإضافة إلى تتبعنا لكتب الرّحالة المغاربة الذين مرّوا من هنا في طريقهم للحج، وما دوّنوه من أخبار وإشارات عن شرفة أبناء سيدي طيفور.

1. التعريف بسيدي طيفور :

رغم المحاولات الحثيثة التي قمنا بها من مطالعة كتب النسب على غرار كتاب السلسلة الوافية والياقوتة الصافية للعشماوي، وكتاب الاعتبار وتواريخ الأخبار لابن فرحون، وكتاب القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم للطيب بن المختار الغريسي، وغيرها من الكتب التي عُنيت بالتعريف بالنسب الشريف، وهذا قصد العثور على نسب سيدي طيفور من مصادر موثوقة إلا اننا لم نعثر على شيئ ذي بال نتيجة شح المصادر وندرتها (على الأقل فيماهو منشور لحد الآن)، باستثناء

بعض الأوراق المتداولة عند البعض على شكل شجرة نسب لهذا الولي والتي تظل غير موثوقة، إلا أننا نؤكد على النسب الشريف لسيدي طيفور، والذي لم يكن في أي وقت من الأوقات محلا للشك ليس عند أبناء سيدي طيفور فحسب، بل عند كل الأعراش القريبة والبعيدة التي تعترف بذلك وتُقرّ به، مما جعل هذا الأمر شيئا مسلّما به، وهذا ما أكّدة صاحب كتاب النسب الشريف:"..تبين الصفة الشريفة للرجل والتي كان معترفا بها على نطاق واسع في القرن19م."(بن عمار، 2014، ص.250)، وتجدر الاشارة هنا إلى وجود ولي صالح بنفس الاسم بزمورة ولاية غليزان قال عنه صاحب كتاب أعلام ومآثر ولاية غليزان: "ومن الأولياء الصالحين سيدي طيفور...إلى أن يقول فإنما يدل على ثبوت شرف سيدي طيفور الكائن بعرش اولاد رافع ضواحي زمورة، لاينكره لا القريب ولا البعيد، وهو باق بقاء ذريته ما دام الكون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها"(السنوسي، د.ت.، ص.46)، وبعد طول نظر ومقارنات في مختلف شجرات النسب الخاصة بكل من سيدي طيفور بولاية البيّض، وسيدي طيفور زمورة ولاية غليزان توصل صاحب كتاب النسب الشريف إلى أنّ كلاهما ينتسبان لشجرة واحدة، وفق السلسلة التالية "سيدي طيفور (للجنوب الغربي بين 1520 و1600م تقريبا) بن امحمد بن علي بن أحمد (المسمى سيدي طيفورلزمورة بين1400م و1480م تقريبا) بن محمدبن عثمان بن عبدالله بن علي بن بلقاسم بن ناصر بن عمر بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن امحمد بن عبدالله بن محمد بن ادريس بن محمد بن سليمان بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم."(بن عمار، 2014، ص.260) .

عاش سيدي طيفور على الأرجح خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي، حيث قدم من فاس بعدما أتمّ دراسته هناك، وقد اشتغل لِتَوّه بتعليم القرآن عند بوعلي[1]، هذا الأخير كان يتمتع بسلطة ونفوذ كبيرين على مستوى المنطقة، حتى شاع عند الناس المقولة المشهورة "السَّمَا لْرَبي والارَض لْبوعلي"، وظل سيدي طيفور يقوم بتعليم أبناء الرّحّل، وتلقينهم مبادئ الاسلام، ومن أبرز الكرامات التي تحتفظ بها الذاكرة الجماعية لذريته ما حدث له مع بوعلي بخصوص منبع الماء الذي كان يسير في اتجاه الشمال، وبعد أن تنازع الرجلان حول ملكية الماء ضرب سيدي طيفور عين الماء بعصاه وخاطبها قائلا: "إن كنتِ لبوعلي ثوري، وإن كنتِ لي غوري"فاختفت العين في ذلك المكان، ثم تحرك سيدي طيفور قليلا في اتجاه الجنوب ليضرب الأرض مرة ثانية بعصاه مخاطبا إياها بقوله : "إن كنتِ لي ثُوري، وإن كنتِ لبوعلي غُوري " فثار الماء

هناك بقدرة الله، وأصبح يجري باتجاه الجنوب، ومن ذلك الوقت سلّم له بوعلي بملكيته لتلك العين وما حولها، وظل الماء ينساب منها بكميات كبيرة، واستُعمِل لسقي المنتوج الفلاحي على مسافات تقترب من ثمانية كيلومترات، أماالآن فقد أصبحت تتوسط البلدية، ويتم بواسطتها سقي كل البساتين المحيطة بها، ومنذ مدة طويلة احتفظت تلك العين باسم "لالة خدة" إلى غاية يومنا هذا، وبخصوص هذا الاسم فإنّه يعود لامرأة صالحة من ذرية سيدي طيفورتعبدت هناك، وقيل غير ذلك، ومما لايزال الناس يتحدثون به أنّ تلك العين ولوقت قريب جدا كان يخرج منها مع الماء نوى التمر وصدف كصدف البحر، إلى جانب خروج رمال ذهبية، ويتناقل الأبناء عن الآباء أنّ أصلها من الساقية الحمراء[2] في حين يقول البعض الآخر أن أصلها من تافيلالت[3]، ويوردون في ذلك قصة مفادها أنّ أحدهم سقطت منه طَستْ (إناء لسقي الماء) هناك، وبعد مدة خرج الطست من عين لالة خدة.

تزوج سيدي طيفور بهجيرة ابنة سيد الناصر[4]، وأنجب من الأولاد عليا، ويقول البعض أنّ سيدي شعشوع صاحب الضريح الموجود بصحراء سيدي طيفور هو ابنه الثاني، في حين يذهب آخرون إلى أنه أخ لسيدي طيفور وليس ابنا له، أما ابنه علي فقد اشتهر هو الآخر بالصلاح والولاية، على غرار أبيه وخاله، وضريحُه معلوم مشهور في قبة على ربوة عالية بمكان يسمى سيدي علي بن طيفور، وحوله مقبرة قديمة، يقال هنا أن سيدي علي بن طيفور غار من طفل كان يكفله أبوه، فاتجه إلى مكان يسمى "امْعَلى"مختفيا هناك عن والديه، وكان راعي غنم سيدي طيفور يرعى بذلك المكان، فيَعْمَد سيدي علي بن طيفور إلى إحدى العنزات فيشرب لبنها، فلما تكررت الحادثة شكّت أمه في أنّ ابنها هو من يفعل ذلك وأخبرت أباه بالأمر، فرافق الراعي إلى مكان الرعي، وظل يرقب العنزات حتى رأى أنّ إحداهن تذهب لمكان مجوّف، وبعدما تتبعها عثر على إبنه بالمكان، وساعتها دعا الابن على الراعي بقوله "العَينين اَلّي خبروا عَليَّ يعماو"، فقال سيدي طيفور أما التي من جهتي فلا، وهذا ماحدث، وعندها قال سيدي طيفور لابنه علي"دَرتْ بيني وبينك سبع جبال"، وبالفعل يفصل حاليا بين ضريح الأب والإبن سبعة جبال على مسافة تقدر بحوالي 50كم.

توفي سيدي طيفور في نفس المكان الذي ترعرع وعاش فيه وكان ذلك في حدود سنة 1009هـ/ 1600م على حسب بعض التقديرات، ودفن بالقرب من العين التي ذكرناها سابقا، وضربت على

ضريحة قبة، وبمرور الوقت أُنشِئت حولها مقبرة أصبح يدفن فيها كل من مات من ساكنة سيدي طيفور.

2. سيدي طيفور من خلال كتب الرحالة المغاربة:

كان موكب الحج المغربي بشقيه الفاسي والسلجماسي يمرّ في الغالب بطريق محاذٍ لسيدي طيفور، ما جعلهم يحتكون ببعض الأهالي، ويدونون بعض أخبارهم، ونحن هنا نذكر بعض ما وقفنا عليه من معلومات - وإن كانت قليلة- أوردها المغاربة في كتب رحلاتهم الحجازية.

1.2. الرحلة الناصرية (1709 - 1710م) :

وهي رحلة قام بها أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي[5] ذكر فيها شيئا من أخبار أولاد سيدي طيفور عندما قفل راجعا من الحج، وذلك لما نزلوا بوادي الحُمَيْضا (وادٍ تعود ملكيته لأبناء سيدي طيفور)، فجاءهم وفد من أولاد سيدي طيفور زائرين، ومعهم أربعة كباش تصدقوا بها لوفد الحج، وقد وصفهم الدرعي بأنهم ناس مساكين لا يطلبون إلا قراءة القرآن والدين، كما حدثنا عن زعمهم بأن جدهم سيدي طيفور من ذرية الإمام أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي"[6]. (الدرعي،2011، ص.221).

2.2. الرحلة الحجازية للحضيكي (1739م):

تكتسي الرحلة الحجازية للحضيكي[7] قيمة كبيرة نظرا للمعلومات التاريخية والجغرافية والأدبية بالإضافة إلى الدينية التي تضمّنتها، وقد كانت رحلته عام 1152هـ/1739م، حيث ذكر فيها أنّ ضريح سيدي طيفور يتواجد بالقرب من وادٍ كبير جارٍ بالماء صيفا وشتاء، كثيف شجر الطرفاء (شجر من العضاة، وهَدَبُه مثل هدب الأثل)، واعتبر الحضيكي أن نسب سيدي طيفور يتصل بأبي يزيد البسطامي، ودعا الله أن ينفعه ببركته، كما أشار لوجود جبل الملح ووصفه بأنه يُرى على شكل جروف (جمع جرف) بيضاء تسيل، وأنّ الحجاج يأخذون منه الملح. (الحضيكي ، 2011، ص.84)، وتجدر الإشارة إلى أنّ جبل الملح لا زال على حالته تلك إلى يوم الناس هذا.

3.2. الرحلة الناصرية الكبرى (1196هـ/1782م) :

تعد الرحلة الناصرية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري [8]من الرحلات الحجازية التي تحمل إفادات مهمة نَتجَت عن المشاهدات والاحتكاك، حيث وصف صاحبها مختلف الأمصار والأشخاص والأحداث التي صادفته أثناء سفره، والتي من بينها ما أورده عن أهل سيدي طيفور، حيث يقول: "وهذا الوادي ذو مياه مختلفة، وفيه العذب الفرات، ساكنته أعراب بني طيفور يزعمون أنهم من ذرية أبي زيد البسطامي، وليس كما زعموا، وإنّما جاءت تسمية جدهم على أبي يزيد لأن قبة طيفور جدهم بهذا المكان، وأبو يزيد البسطامي لم يسلك هذه البلاد، ثم ذكر وجود معدن الملح بذلك الوادي، كما أخبر بأنهم قاموا بتزويد أهله بما يحتاجون إليه من سلع" (الناصري، 2013، ص.202).

كما أورد قصة نقلها عن الركب الفاسي مضمونها أنّ أحد عرب بني طيفور جاءهم طالبا منهم حراسة أموالهم، فقال له حارس الركب من جاءنا قتلته، فقال له الأعرابي لا تقدروا، فواعده على الإتيان لسرقته ليلا، ورغم أنّ الفاسي بات يحرس إلا أنّ ذلك الأعرابي استطاع أن يسرقه سَطْلة من النحاس، لكن الفاسي دبّر حيلة استطاع بها أن يضرب الأعرابي ببندقيته بعدما أخبره أنه تمكن من سرقته، بقوله إن كنت صادقا انقر السّطلة، فلما فعل الأعرابي ضربه على الحس فقتله، وعندها اجتمع رأي الفاسيين على رميه في فرن الخبز حتى لا يعلم به أهله، ولم يتصالحوا معهم إلا أثناء عودتهم من الحج على شيء قليل من الكتان."(الناصري ، 2013، ص.202)، ثم ذكر أنّه سئل بهذا المكان عن رفقاء الركب النبوي كانوا شركاء في الزاد، ثم بدا لهم الافتراق، فأراد المنفرد منهم أخذ حقه من الزاد أو بيعه في الحين، فأجابهم على سؤالهم ذلك"(الناصري، 2013، ص.203).

3. من أحفاد سيدي طيفور :

ظلت الذاكرة الجماعية لأبناء سيدي طيفور تحتفظ بكثير من الأسماء التي اشتهرت بينهم بالصلاح والاستقامة، وتميزت بالخصال الحميدة كالبساطة والكرم، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وقد عاش حفدة سيدي طيفور على الأرض التي ورثوها عن جدهم الأول بالقرب من عين لالة خَدة عيشة تقوم على الأنفة والشجاعة، يتنقلون بحثا عن الكلأ لأنعامهم فترة من الزمن،

وكغيرهم من الأعراش المحيطة بهم بدؤوا ينحون شيئا فشيئا نحو الاستقرار، خاصة بعد ظهور موجات من التعدي لبعض القبائل على بعض، فانتشر الخوف والرعب بين الناس، فقام أبناء سيدي طيفور ببناء قصر يصدّ عنهم غائلة العدو، واختاروا له موضعا محاذيا للوادي الذي ذكره الرحالة المغاربة سابقا، ونحن هنا نحاول أن نأتي على ذكر قصص لبعض أولئك الرجال الذين لا تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بجميل خصالهم، وصلاح أحوالهم، واستقامة سيرتهم، وهم بلا شك أعلام وقامات سامقة، نحاول أن نجلّي بعض أخبارهم للأجيال الصاعدة حتى لا يندثر أمرهم، ويُنسى تاريخهم بمرور الزمن.

1.3. سعد بن ثابت ومقتلة زقدو[9] :

هو رجل من أحفاد سيدي طيفور، ويُعدّ الجد الخامس لعائلة درغال، اشتهر بالخير والصلاح، يُحكى عنه أنه بعدما سار ركب الحجيج مدة شهرين عزم على اللحاق بهم، وطلب ممن يريد أن يرسل وصية لأحد أقاربه أن يفعل ، فاستجاب البعض وهم مستغربين كيف يمكن له أن يدركهم بعد كل هذه المدة، ولكنّ الله طوى له الأرض طيا، وتمكن من الحج مع قومه، وقفل راجعا ليصل كذلك قبلهم، فلم يصدقوه، حتى عاد الركب وهم يحملون الوصايا التي أخبرهم بها سعد بن ثابت، مؤكدين لهم بأنه فعلا حج معهم، أما عن قصيدته بشأن موقعة زقدو، وحسب أحد حفدته درغال دحمان[10] (مولود سنة 1924) فإنّه خرج ذات يوم ليُفلِح أرضه، وأثناء عودته سمع صوتا وهو بالفلاة يطلب منه عدم القدوم على قومه في القصر، ليتبين له فيما بعد أنّ زقدو قدموا على مَن كان بالقصر من الطوافير فأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، وتعود أسباب المجزرة كما تقول الرواية الشفوية إلى الهجوم الذي تعرّض له عرش المذابيح[11]، من قبل فئة من زقدوا، حيث أخذوا أموالهم ومواشيهم، فاستنجد أولئك بالطوافير، الذين لم يترددوا في نجدتهم ،وتمكّنوا على إثرها من قتل المعتدين واسترجاع ما أخذوه من أموال، ولم ينجو منهم إلا واحدا، وأثناء ذلك استولوا على فرسين لزقدوا، وعندما وصل الناجي وأخبر قومه بما حدث لرفاقه، عزم زقدو على الانتقام، وجمعوا جيشا عرمرما، وتوجه القوم ومعهم الدليل إلى مكان الحادث، ولما وصلوا إلى وادي الملح شاهدوا رجلا من أبناء سيدي سليمان، ففرّ منهم متّجها نحو أخواله الطوافير ليخبرهم خبر الجيش، فتبعه القوم، وفي طريقهم وجدوا الفرسين الذين سُلبا منهم، وعلموا ساعتها أنّ هؤلاء هم من اعتدى على رفاقهم، فقرروا شنّ هجوم عليهم، أما الطوافير فقد انقسم رأيهم بين من يقول نقاتلهم

داخل القصر المحصّن، ومن يَعدُّ ذلك جُبنا ويُلحّ على القتال بعيدا عن النساء والصبيان، وأخيرا انتهوا إلى الخروج خارج الحصن، ولأن زقدو كانوا أكثر عددا وعدة استطاعوا بعد جهد جهيد أن يتغلبوا على الطوافير، بعدما حاصروهم من الخلف والأمام، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة لم ينجو منها إلا من كان غائبا، أو بعض النسوة والأطفال الصغار، وحسب الرواية الشفوية دائما فإن الطوافير أبلوا بلاء حسنا، وأظهروا استماتة قوية وألحقوا بالمعتدين خسائر في الأرواح فادحة، ومقبرة كل من الفريقين الموجودتين بعين المكان تظل شاهدة على ذلك، وقد سجّل أحداث تلك الموقعة سيدي سعد بن ثابت في قصيدته التالية:

جَيش طَلْ من الطَّالات يا ولَيدي رابْ لْفيض لْعايبْ داير على سَهلين
حَمْلوا المَقرْشي حَفْروا فيه حاسِيين اعْقابْهم في قَرْن لَخْلال وشاوهُم في فَيضْ ناهِض
ثَمَّ قَلْعوا سَعدي وفَرغْ بلادي ياوليدي دَخْلوا مع خَنق المِلح يتَبّعوا في جُرّة أهل ازْرَيقِين
تَلاقاوْ مع طيفور بن قويدر بَرهْمي صَيادي ياوليدي وجا يْرَكَّز في عَودَه للطوافير
ياناس كونوا على بالْكُم راكم مَخْدوعين قاله واحد من الطوافير تفُوه عليك
يا طيفور بن قويدر أنتَ فالك شَين ثَمَّ ضَحكوا الرّجال وطَلُّوا مَتحزمين
وتلقَيناهُم في صَرَيْ التُربَة يالطُلبَة والدّم على الوطن مْحدَّر والفُرسان امْكَعْمين
جَيش طاحْ علينا بغير سبَّة واحْنا في واد آمنين يا مَصْرا بالطوافير الصَّيادِين
مَعْظم ذاك النّهار طاحُوا فِيه التَّايكِين بين العَلْفات صابْرين بين العَلْفة والعَلْفة
اطِيحْ العَشَرة والعِشْرين وقَصْتي قْصِيَة نْعِيدها على الحاضرين هاذي حَمْلة تْجَرّف
ما فِيها ما انْصَرّف قُومَانْ من الغرابَة امْوالِيها كُحْل تَتْدابا هَدُوا لِيها لَمْسَبْلين
اِتّجْرَح قدور من لَعْرابة ضَرْبوه عل القَيْبوبَة تحت القَلب قَطْعوا له عِرْقَين
اِيشير اصْغِير مُولى صَوْمَين نَحْسَبْها قَومْ نَذْبَح ونْقَدِي ياوليدي بِصَّح جُرُّتْها
طامَّة اتْسِير على عَقْدَيْن لو كان نَحْسَبْ هاذ النّهار مَهُوشي لَيّا نَهْرُب بَكْبادِي
ياوْلَيْدي لِلْطّوِيلة مَحْشَر زَيْن يا حَفّارَة الدّفِينا يَرْحَمْكُم تَوسّعوا علينا
كي تَشنْقُوا اقْرُوا اعْلِينا وكي اتْقَبْلوا صَدْقُوا اعْلِينا حتى اتْجُوا بِينا امْرَدْفِين[12].

وحسب الرواية المتواترة دائما، فإنه كان ممن بقي حيا بعد هذه المقتلة العظيمة التي تعرّض لها أبناء سيدي طيفور رجل اسمه معمر بن الزهرة، وقد ظن الغزاة أنه مات، بعدما وضعوا عودا في أنفه للتأكد من مقتله، حيث أصيب بسبع طلقات، ولكنه تشجّع ولم يتحرك، وأثناء مغادرتهم

للمكان اشتكت بعض النّسوة لقائد المعتدين عن الدمار الذي حلّ بهم، فقال لهن : سَتَخْلُفون لأن ما وقع لكم كان في بداية الشهر، وأننا لم نفسد حرثكم وثماركم، وبالفعل حدث ذلك فبعدما تمّ علاج معمر بن زهرة، اتجه بمن تبقى من النساء والأطفال إلى أعلى الجبل بمكان به ماء وبعض الأشجار المثمرة، وسهر على توفير الغذاء لهم حتى كَبِروا، وأصبح ذلك المكان يُعرف من حينها بـ"بَخْلَف " وتظل آثاره شاهدة على ذلك إلى يومنا هذا.

2.3. سي محمد بن المخطار:

كان سي محمد(الأول) لايزال رضيعا لما هجم زقدو على الطوافير، في حدود الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وتمكنت أمه أن تنجو بنفسها وبه من همجية زقدو، وانطلقت هائمة على وجهها لا تدري إلى أين تتجه، ولا إلى من تلجأ، وبعد مدة وجدت نفسها بخيمة لرجل من أبناء سيد الناصر، فاستأمنته على نفسها ورضيعها، وبعد أن أتمّت عدتها خطبها الرجل ودخل بها، ليشبّ سي محمد عند ذلك الرجل ظانا أنه أبوه، لكنه بمرور الزمن سمع أترابه يعايرونه "بيتيم زقدو"، فطلب من أمه أن تخبره بحقيقة ذلك، فتمنّعت، غير أنّها بعد ذلك استجابت نتيجة إلحاحه، فسألها عن أهله فأخبرته أنّ أباه المخطار توفي يوم الحادثة، ولم يبق له من قرابته سوى عمه بلقاسم الذي كان متواجدا بفاس في طلب العلم، وفي هذه الأثناء أرادت أمه أن تزوجه بفتاة من ذرية سيد الناصر تَجنّبا لاحتمال عودته إلى مسقط رأسه، وليلة الخطبة تكلمت أم العروس مشترطة بقاء ابنتها عندها، فخاطبها سي محمد أنّه لا يرغب في الزواج من ابنتها، وفي صباح اليوم الموالي توجه إلى أرض آبائه وأجداده، ولمّا وصل إلى عين المكان وجد أربعة أشخاص، ولأنهم لا يعرفونه سألوه عن نسبه وحسبه، فأخبرهم بقصته، وعندها قام أحد الأربعة الجالسين فاحتضنه وقبّله مخبرا إياه بأنّه هو عمه بلقاسم، ثم أخذه إلى بيته فرحا مسرورا بابن أخيه، وبعد مدة زوجه بابنته فريحة التي أنجبت له سبع بنات، وعندها سأل الله أن يرزقه بولد يسميه محمدا تيمنا باسم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان له ذلك وحقق الله له أمنيته بازديان فراشه بمولود بهي الطلعة سماه محمدا، وقد كان سي محمد الأب مستجاب الدعوة، صاحب برهان وحدثت له كرامات عديدة نورد هاهنا إحداها، حيث مرت قافلة بالقرب من ضريح سيدي طيفور فخاطبهم رجل من لمساعدية (عائلة مسعودي)، ابتعدوا من هنا فالمكان به مطمورة (حفرة تحت الأرض يتم فيها تخزين القمح والشعير) سي محمد، إلا أنّهم لم يعبؤا به، وشرعوا في الاستيلاء على ما كان بها من قمح وشعير،

فجاءهم سي محمد، وترجّاهم بألا يتركوهم وأبناءهم بلا غذاء، لكنهم استهزؤوا به، وصادروا كل المؤونة، فرجع سي محمد لبيته وكتب رسالة، ثم لحق بالقافلة بمكان يسمى الكُدْية، حيث سلم الرسالة لمن وجده متأخرا منهم، طالبا منه أن يسلمها بدوره لقائد القوم، وقد ضمّن الرسالة ما يلي :

يا وُلْد الخادم من هاذ الهَجْرة إن شاء الله راك تَرجَع نادِم
ياخالْقِي يامولايا مازاروا ماقالوا هَذِي القُبّة بَوابْها وهذا طَيْر أخضر
نَبقِي مَوتْهُم ايْجي في طَيطايَة ويَضرْبوهم النّصارى بالسلاح والجَرارة
ويَتْردْمُوا منهم سِتَّة و لْلاّ سَبْعة في اقْبَر بلا سُتْرة و بلا احْجَر
ونَبْقِي نُخْلُص مِنهم في هاذي الصّمايِم قَبْل طلُوعْ الشّهَر
ونَبْقِي يَرْجَع مِنهم واحد ايْبَلَّغْ أصْحاب الغُرفَة بالخبَر

وحسب مخطاري أحمد[13] (الحفيد الثالث لسي محمد)، فإن القافلة بعد مغادرتها للمكان تعرّضت لمطر غزير مصحوب بالبَرَد، وفي الغد لما وصلوا لمكان مستوٍ قرب مدينة الأغواط، رأتهم القوات الفرنسية فحسبتهم جيشا يتبع المقاومة، فشنّت عليهم هجوما بالمدافع قُتلوا على إثره جميعا، ولم ينجو منهم إلا الرجل الذي تسلّم الرسالة من سي محمد، وبعد مُضي عام على الحادثة، جاء ذلك الرجل مع زوجَتَيه باحثا عن سي محمد، فلما وجده قصّ عليه خبر أصحابه، وكيف أنه وقع لهم كما كُتب في الرسالة بالتفصيل، فقال له سي محمد أما أنت فقد رضيت عنك لمّا انتظرتني وأَخذتَ مني الرسالة.

3.3. سي محمد بن محمد (سي محمد التالي):

سي محمد (التالي)هو الذكر الوحيد لسي محمد الأول كما أشرنا لذلك من قبل، ولد حوالي 1870م وتوفي سنة 1939م، وهو الآخر اشتهر بالصلاح، وكانت له أحوال مع الله وكرامات واشتهر بين الناس بدعوته المستجابة، وعرف له قومه ذلك فكانوا يلتمسون منه البركة والدعاء، ولا يتقدمون عليه في أمر أبدا، ومما يحكى عنه في هذا الشأن القصة التي حدثت له مع أحد قادة العرش ويسمى عيسى بن الحاج، والذي كانت له خصومة مع لعرج -صهر سي محمد- ، حيث أصدر القائد أمرا مفاده أنّ أي أحد يستضيف لعرج يعاقب، وفي يوم من الأيام قدِم لعرج لزيارة ابنته

خضرة (زوجة سي محمد) فاستضافه سي محمد وأكرمه، إلا أنّ أحد الذين حضروا الوليمة أخذ حقه من اللحم إلى القائد عيسى ووشى بسي محمد عنده، فغضب عيسى من سي محمد غضبا شديدا، وقام باستدعائه وكتب له رسالة وختم عليها بعدما أغلقها، وطلب منه أن يأخذها للقائد الفرنسي بمدينة أفلو، وضَمَّنها بعبارة مفادها أنّ حامل الرسالة سرقه عجلا، فقام القائد الفرنسي بتغريم سي محمد بمبلغ مالي كثمن للعجل، ثمّ همّ بتوجيه صفعة له، فقال له سي محمد : ابتعد عني فأنتم أعداء نبينا صلى الله عليه وسلم أبا عن جد، وعندها شعر الفرنساوي بأن يده ثقلت ولم تعد مِلكه، فعلم بحقيقة الرجل، وقال مهددا القائد عيسى بن الحاج : كيف تُسوّل له نفسه أن يبعث لي مرابو (**marabout**) !، مُلتمسا في نفس الوقت من سي محمد السّماح، ولما عاد هذا الأخير إلى أهله دعا على الواشي بقوله: يا الواحد القهار هذا النّمام رِجْله يَقْعُد في الدار، واعظامه تاكلهم النّار، وياك تَفَّرْها فيك محمد بن المخطار، ثم دعا على عيسى بن الحاج مسجلا تلك الدعوة في قصيدة مشهورة جاءت على النحو التالي:

يا اَهْل بْرِيْدَع وَاكْسال في الطْوِيلَة ثَقّبْ مِشْعال ثَقْبَه في مَشْيخْ لَطْفال ثَقْبَه في ذَوذْ عيسى لي خَطّاني

يَرْكَبْ عَودَه وَيْجِي طَحْطاحْ دَحْمي سِيدالنّاصر وَارْواحْ وَامْباتْكُم في الطَّير البِرْمِي

وَفَتّْحُوا لَه هذا المِنْشار كُلْ صُحْبي مِنكم يَخْطر وكُل فارس مِنكم يَجْني

ادْعَيْتُكم على وَجْه المُخطار يا اهْل النَّوبَة غِيثوني ويا الرَّاقِد في بغداد هاوْ راكْ راقد قَيْ مَتْهَني

إذا دَرَّقْتْ على الخُدّام راه مالَكْ للنّصْراني وإذا راك خايف من عيسى بن الحاج

وين سيدي طيفور ابْطا وراه يَتْحَسَّسْ على اللّقْطَة ويا ك راك عالم عيسى خَطّانِي

وَيْن سيدي طيفوريْلُوحْ عيسى لِغَرب الصّحور وَيْجي عيسى مَكْسُور ما يرُدْش مال الحَيواني

ما نَبْقِيلوش المُرَّة وما نَبْقِيهشْ يموت في قُرْب العِدْياني نَبْقِي عيسى يَعْيا مَع الغنَم ويَحقْروه الرّعْياني

والحُرْمة قْداتْ ما وَلاتْ افْعَسَت فيها كي النّار اَطْفات مَضَيْتها بين اَسْناني

ولَعْرج اَرْوى على النّاس اَجْبا مازال يَعْيا فَوْقانِي

وانا بايَتْ في الزّرَيْقات بايَتْ لْسانِي قَتّاتْ راه ربي شايَفْ قَيْواني

واشْ طَيْحَك في هاذْ الشّاقُور ماضِي وماضِيْنَه اصْحابْ الرَّوْحاني

واش طَيْحَكْ في هاذ البَقُّور ياك يَنْطح رَوْراي.

وبالفعل استجاب الله لدعوته،على النحو الذي دعا به، حيث نُفِيَ عيسى بن الحاج للصحراء بعدما تمّ عزله من الحكم، وهناك سقط فأصيب بكسر، أحدث له إعاقة دائمة، وأصبح بموجبها أعرجا، وعاد لرعي الغنم، وبذلك غَدا مسخرة للرعاة، بينما تسلّم لعرج قيادة العرش، وأصبحت زمام الأمور كلها بيده، وبعد سنين طويلة من الحادثة جاء بنو عمومة عيسى بن الحاج لسي محمد (التالي) مُلتمسين منه العذر، طالبين منه أن يرضى عنهم ويسامحهم فتمّ لهم ذلك .

خاتمة:

إن التعريف برجل صالح وولي من أولياء الله كسيدي طيفور في غياب شبه كلي للمصادر المكتوبة، ليس بالأمر الهين، إلا أننا حاولنا جاهدين الوقوف على بعض أخباره وأخبار ذريته معتمدين على الذاكرة الشفوية المتوارثة عن الأجيال السابقة،كما عزّزنا بحثنا بما كتبه بعض الرحالة المغاربة في طريق حجهم عن موضوعنا، حيث خَلُصنا إلى أنّ:

- ذرية سيدي طيفور كانوا كثيري الافتخار بأبيهم سيدي طيفور، متمسكين بنسبهم الشريف، أما انتسابهم لأبي يزيد البسطامي فغير صحيح ، وكل ما في الأمر أنّ كلا الرجلين يتسمى بطيفور، وكل منهما عُرف بالصلاح والولاية، كما أنّ شهرة البسطامي بلغت الأفاق بعدما عاش بقرون عديدة قبله، ولعل هذه بعض الاعتبارات التي جعلتهم يدّعون أن جدهم من ذريته.

- كما نسجل أنّ أبناء سيدي طيفور تميّزوا بالخصال الحميدة كالشجاعة والأنفة ونجدة المظلومين ،وكانوا أناسا طيبين اشتهروا بالجود والكرم وحب القرآن، تأسيا بأبيهم الذي ضُربت على قبره قبة منذ مدة ليست بالقريبة .

- أتينا على ذكر بعض الوقائع والأحداث البارزة التي وقعت للطوافير مستشهدين ببعض القصائد الشعبية التي أرّخت لها ،كتلك التي سجّلت ما وقع للطوافير في موقعة زقدو، أو تلك التي سطّرت بعض الكرامات التي حدثت لبعض الصلحاء من أبناء سيدي طيفور.

وفي ختام هذه الورقة البحثية لا ندعي أننا وفينا هذا الرجل حقه من التعريف والإحاطة،بل إننا نؤكد أن هذا الرجل الصالح لايزال مغمورا يحتاج إلى باحثين يأخذون على عاتقهم :

- مواصلة البحث في هذا المضمار، قصد العثور على مصادر مكتوبة تعرفنا بشكل أدق على هذا الرجل الصالح، وسيرته العطرة، وتُجلي لنا مآثره،ومآثر ذريته من بعده .
- جمع الأشعار والمدائح الكثيرة التي لاتزال الذاكرة الشعبية لأبناء سيدي طيفور تحفظها، ودراستها لأنها تتضمن الكثير من الأحداث التي وقعت لبعض الصالحين من حفدة سيدي طيفور .

الإحالات والتهميش:

(1) بوعلي: ولي صالح تسمى عليه حاليا بلدية بوعلام ،يسكنها اولاد سيدي بوعلي ، تقع على بعد60كم من البيض ،في اتجاه الحد الغربي لجبل العمور ،وأمام جبل كسال ، تبعد ب15كم عن بلدية سيدي طيفور .ينظر: بن عمار ،خليفة، (2014)، كتاب النسب الشريف (ذرية النبي صلى الله عليه وسلم في المغرب العربي)وشرفة المغرب العربي، مكتبة جودي مسعود،وهران ، الجزائر، ص.211 .

(2) الساقية الحمراء وواد الذهب هي الأراضي الصحراوية الواقعة بين السوس الأقصى من المغرب الأقصى شمالا وبلاد شنقيط (موريطانيا) جنوبا والمحيط الأطلسي غربا والجزائر وموريطانيا شرقا. ينظر : قويسم محمد ،(2019) ،الساقية الحمراء وواد الذهب خلال العصر الوسيط من خلال كتب الرحالة والجغرافيا ،مجلة دراسات إفريقية ، الجزائر،المجلد 3، (العدد 7)، ص.38.

(3) تافيلالت: حاضرة من حواضر الثقافة الإسلامية المغربية العريقة ،أنجبت الكثير من العلماء النابغين ، والحفظة النابهين ، ومن الساسة المفكرين.ينظر : المتليني، عبد العالي، (2020)، علماء سلجماسة –تافيلالت –بين الاقامة والترحال في العصر لحديث والمعاصر،أعلام كتاب نشر المثاني وقصر تابوعصامت أنموذجا، مجلة "التراث"،مكناس،المغرب،مركز رؤى للدراسات والأبحاث، المجلد(10)، (العدد03).ص 120.

(4) سيد الناصر بن عبد الرحمان ، ينتهي نسبه لفاطمة الزهراء رضي الله عنها، اشتهر بالصلاح والولاية وحدثت له كرامات كثيرة .ينظر: ناصر،مجاهد ،(2007)، سيد الناصر بن عبد الرحمان سلطان مازونة ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر، ص28.

(5) الدرعي : أحمد بن محمد الدرعي ولد عام 1057ه/1664م ، تربى في أحضان أسرة اشتهرت بالعلم والتصوف ،تميز بكثرة رحلاته المحلية، والحجازية ، وتولى مشيخة الزاوية الناصرية وعمره سبع وعشرون سنة ،له إحدى عشر مؤلفا، توفي بين سنتي 1128ه أو 1129ه ، ينظر: أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، (2011)، الرحلة الناصرية 1709- 1710م، تح عبد الحفيظ ملوكي ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبوظبي ، الإمارات العربية ، ص . ص .19- 34 .

(6) البسطامي: سلطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شَرْوسان البسطامي، أحد الزهاد، كان جده مجوسيا فأسلم ،من أقواله : لله خلق كثيرون يمشون على الماء ، لا قيمة لهم عند الله ، ولو نظرتم إلى من أُعْطِي من الكرامات حتى يطير ،فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود والشرع ، توفي سنة 261ه .ينظر: شمس الدين الذهبي ،(1983) سير أعلام النبلاء ،تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ج13، (ط.1)، مؤسسة الرسالة ، ص. ص.86- 89 .

(7) الحضيكي: محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الجزولي قبيلا ،الحضيكي شهرة ، الشاذلي طريقة ،ولد 1118ه،كان عالما ورعا، متبعا للسنة،جمع بين شرفي العلم والولاية،تتلمذ على عدة علماء ،كما اخذ ت عنه جماعة كثيرة ،توفي عام 1189ه .

ينظر: العباس بن إبراهيم السملالي، (2001)،الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ،ج6،(ط .2)، المطبعة الملكية الرباط ، المغرب ، ص. ص. 85- 81 .

(8) الناصري : محمد بن عبد السلام بن ناصر ، العلامة الشهير ، والشيخ الامام الكبير، والرحالة المعتني البحاثة ، له رحلة كبرى في مجلدين، ورحلة صغرى في سفر وسط .ينظر: عبد السلام بن عبدالقادر بن ابن سودة، (1997)،اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تحقيق محمد حجي ، ج1، (ط1)،دار الغرب الاسلامي ، لبنان ، ص133 .

(9) زقدو: قوم من الجنوب الغربي بناحية بشار يقال أن غالبيتهم من دوي منيع كونوا جيشا كبيرا، وشرعوا في الإعتداء على الآمنين وسلب أموالهم.

(10) المذابيح: عرش جنوب سيدي طيفور ،سكنوا المايا وهي حاليا تتبع ولاية الأغواط، انتقل كثير منهم إلى غرداية وضواحيها ،ينظر: حمو بن محمد عيسى النوري ، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا ، دار البعث ،قسنطينة ، الجزائر ، ص 224.

(11) دحمان بن قدور بن علي بن محمد بن سعد بن ثابت .أُجريت المقابلة يوم :05/ 2021/07.

(12) نقلت القصيدة عن بلجرب خالد بن طيفور بن سليمان بن سليمان بن محمد بن بوراس(حضر المعركة).أُجريت المقابلة يوم:2021/07/04.

(13) هو احمد بن بوبكر بن محمد بن محمد بن المخطار بن العربي بن الفوضيل بن بلقاسم بن العربي بن الطيب بن علي بن طيفور. أُجريت المقابلة يوم 2021/07/22.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بن عمار، خليفة، (2014)، كتاب النسب الشريف (ذرية النبي صلى الله عليه وسلم في المغرب العربي) وشرفة المغرب العربي، مكتبة جودي مسعود، وهران ، الجزائر.
2. ابن سودة ، عبد السلام بن عبدالقادر ، (1997)، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تح: محمد حجي، ج.1، (ط.1) ،دار الغرب الإسلامي ، لبنان .
3. الحضيكي ، محمد بن أحمد ،(2011).الحلة الحجازية، (ط1)، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط، المغرب.
4. الدرعي ،احمد بن محمد بن ناصر ، (2011) ،الرحلة الناصرية 1709- 1710م، تح :عبد الحفيظ ملوكي ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبوظبي ، الامارات العربية .
5. الذهبي، شمس الدين ،(1983) ،سير أعلام النبلاء ،تح: شعيب الأرنؤوط ، ج13،(ط. 1)،مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان.
6. السملالي، العباس بن إبراهيم ،(2001)، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ،ج6،(ط.2)،المطبعة الملكية الرباط ، المغرب .
7. السنوسي ،مصطفى ، (د.ت) أعلام ومآثر ولاية غليزان ، (ط2)، دار الأديب ،غليزان ،الجزائر .
8. مجاهد، ناصر ، (2007)، سيد الناصر بن عبد الرحمان سلطان مازونة، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر.
9. الناصري،محمد بن عبد السلام،(2013)، الرحلة الناصرية الكبرى، تح: المهدي الغالي،ج1،(ط.1)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب.
10. النوري ، حمو بن محمد عيسى ، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا ، دار البعث ،قسنطينة ، الجزائر.
11. المتليني ،عبد العالي ، (2020)، علماء سلجماسة –تافيلالت –بين الاقامة والترحال في العصر لحديث والمعاصر،أعلام كتاب نشر المثاني وقصر تابوعصامت أنموذجا، مجلة "التراث"،مكناس،المغرب،مركز رؤى للدراسات والأبحاث، المجلد(10)، (العدد03). على الرابط :https://www.asjp.cerist.dz/en/article/137453
12. قويسم محمد ،(2019) ،الساقية الحمراء وواد الذهب خلال العصر الوسيط من خلال كتب الرحالة والجغرافيا ،مجلة دراسات إفريقية ، الجزائر،المجلد 3، (العدد 7) . على الرابط : https://www.noor- book.com/tag

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):

مخطاري، علي، وقنون، حياة. (2021). الولي الصالح طيفور بن امحمد وذريته في المخيال الشعبي لساكنة سيدي طيفور. *آفاق فكرية*، سيدي بلعباس (الجزائر)، *9* (3)، 610-... ؛ رابط المجلة *https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396*